جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعحيوى التطورى (من الإبداع الخاص: "ملحمة الرحيل والعوْد")
الفصل الخامس: "أبو النمرس"

نشرة "الإنسان 2018/07/29
السنةالحادية عشرة – العدد: 3984

بروفيسور يحيـــــى الرخــــــاوي – الطب النفسي، مصر
yehiatrakhawy@hotmail.com

أن الحاضر هو الشئ الوحيد الممكن

قبل المقدمة : (من بريد الجمعة: أول أمس)

أنا أسف

يبدو أن نشر الرواية مسلسلة، خاصة الجزء الثالث "ملحمة الرحيل والعوْد" فى هذه النشرات اليومية هو ضد التلقى الأشمل.

أنا اسف،

وأعتقد أنه لا سبيل للتوقف أو للتراجع

وعموما فالرواية بأكملها متاحة إلكترونيا وورقيا لمن شاء(1)

مقدمة:

نواصل اليوم نشر فصول رواية "ملحمة الرحيل والعوْد "تباعا فى هذه الأيام الثلاث (السبت/الأحد/الأثنين من كل أسبوع) وهى الجزء الثالث :من ثلاثية "المشى على الصراط."

وهذا هو الفصل الخامس

"أبو النمرس"

-1-

لم يكن يعلم أن فى مصر من الأهرامات عشرات، وقيل مئات، كانت معلوماته تقتصر على أهرامات الجيزة وهرم سقارة. قد يكون ذلك مرتبطا بعلاقته بالآثار عموما، وبآثار مصر خصوصا، بل ربما بالماضى كله، هو يخجل من إطالة النظر إلى ما يسمونه آثار قدماء المصريين، يغار، لا يجرؤ أن يتحدى، يقف عاجزا، فيصرف النظر، كأنه يريد أن يثبت لهؤلاء الناس، أو لنفسه أن الحاضر هو الشئ الوحيد الممكن، حاول أن يقنع نفسه مرارا بما يردده الناس عن عظمة الأجداد، الإتقان القديم، البحث عن الجذور، الحرص على الأصالة، كلام كله صحيح، لكنه لا يهمه، ليس من شأنه، كان ــ ومازال ــ يفضل النظر إلى الحجارة والرمل والطين التى لم يمسسها بشر، يخلق منها ما شاء كيف شاء. كانت منال قد عرَّفته بأخيها غير الشقيق: أنور إبراهيم الطيب الذى يمتلك كافتريا صغيرة فى دهب يسميها "الجامعة"، تعلم أنور من هذه الكافتريا – كما تقول منال – ما لم يتعلمه فى الجامعة التى هجرها غير آسف: يمتلك أنور عربة صغيرة يسميها الكتكوت المفترس، أطلق عليها هذا الاسم ليرد به على اسم آخر أطلقه الشارع المصرى عليها حين أسموها "قفا الصعيدى"، ماله قفا الصعيدى، ربما

كان هكذا ليزن مخه العظيم، مثل مؤخرة المرأة الحامل التى تنمو إلى الخلف مع بروز البطن للأمام، حتى لا تقع الأم، هو يسافر مع أنور كلما دعاه إلى رفقة طريق، يحب هذه الرحلات المتباعدة، أرخص وأطيب، تتيح له حوارا مع أنور الذى هو صديقه بمعنى ما، جلال ليس له أصدقاء، اللهم إلا إن كان هناك شئ اسمه: "صداقة تحت الطلب" (رميس)، كان يتحاور مع أنور ومع الطبيعة فى نفسٍ واحد، أتقن أنور لغات أجنبية كثيرة أهمها العبرية، يحدثه فى الطريق عن مصر أخرى غير مصر قدماء المصريين، وغير مصر "حلم فاتيما". حين تضيق بجلال الحال، وتتأخر دعوة أنور، يركب إليه أتوبيس منتصف الليل ويشد الرحال إلى أسيا الصغرى ليعيش هذا الحوار الحى بين الجبل والبحر، يتأمل أنور فى كافيتريته الصغيرة وهو يحادث اليهود والألمان والروس والطليان وبعض الإنجليز أو الأمريكان، ليس متأكدا، يشعر أنه يتابع جلسات مناقشات منتجع الشعوب المتحدة، لا يملك أحدها دون الآخر حق الفيتو، يتعرف على بدو سيناء أعمق، يتعجب أن كل من يعيش هناك، بغض النظر عن موطنه الأصلى، يصبح مثلهم، هذه البداوة الذكية العارية مـُعـدية، طعم الحـبـق على الشاى حاجة ثانية، أثناء جلوسه بجوار أنور فى السيارة، وبعد أن يكف أنور عن تساؤلاته وتفاؤله وإصراره، يصمتان فجأة وكأنهما اتفقا على ذلك، قد تمر ساعة كاملة فى هذا الصمت المفعم دون فتح مذياع السيارة أو سماع نوال الزغبى، أو فريد الأطرش أو كاظم الساهر، يحدث ذلك عادة بعد الفشل فى التقاط محطة إذاعة غير عبرية وغير سعودية، يجلسان ليهمس الصمت بما يشاء، تغلب فترات الصمت هذه وهما وسط سلاسل الجبال التى يتحدى جلال أن يكون فيها سنتيمتر مربع مثل الآخر، هو لا يستقبل الجبال ليرصدها كما هى، هو يخلّق منها ما تقول، تتشكل الآثار الحية كل مرة مختلفة: طريق الكباش، مسلات متجددة، أبو الهول، آباء كثيرة للهول، يا للهول، لم يحب يوسف وهبى إلا فى أدواره الكوميدية، تعاوده تساؤلات عن إيمان عبد الوارث عسر فى السكرتير الفنى"، يلح عليه شوق إلى هذا النوع من الإيمان السهل، ربما مثل إيمان عبد المعطى أو وردة، ربما هو نفس الشعور الذى يتجلى فى فترات الصمت بجوار أنور وسط الجبال، يروح يخلق من كل جبل هرما، ومن كل لون لوحة، ومن كل صخرة أثرا. سرعة السيارة الصغيرة تسمح له بإتقان التشكيل الذى يختلف حسب مسافة البعد عنه، كان يحب أن يغرى صديقه أنور بالمرور على سانت كاترين أثناء الذهاب أو الإياب، إلا أنه بعد أن شاهد ما آل إليه نخيل وادى فيران عدل عن ذلك واكتفى بزيارة الشيخ الضرير فى وادى جـنْـىّ فى دهب، كلما رضى "فرج" أن يصحبهما إليه.

يفضل النظر إلى الحجارة والرمل والطين التى لم يمسسها بشر، يخلق منها ما شاء كيفما شاء.

هو الذى اختار أن يزور محمود عبد السلام شقيق ثريا فى هذا المكان الذى يعده محمود للانتقال إليه بعد أن أخذ إجازة مرضية طويلة تمهيدا لاستقالة يخطط لها، صعب أن تستقيل من الخدمة الرسمية فى البوليس، محمود يكرر دائما أنه لم ينقذه من الأمن المركزى إلا انتدابه لمهمة البوسنة، وحين عاد ــ أيقن استحالة استمراره فى خدمة الحكومة، هذه الحكومة، أو أية حكومة. كلم أناسا كثيرين مهمين قدروا موقفه فى خدمته بالبوسنة، ووعدوه بالمساعدة، هذا بعض ما حكته له ثريا عن أخيها محمود مصادفة، شجعته مكافأة خدمته فى البوسنة على أن يستقيل، ليستقل عن كل ما هو ليس كذلك، ليس ماذا؟ لم يحدد، لكن هذا هو ماخطر بباله، كانت المكافأة كبيرة تكاد تعادل كل ما حصل عليه طول مدة خدمته، الشهادة التى أعلت من شأنه وجعلته يأمل فى قبول استقالته، كانت بشأن دور صغير قام به هناك حين أغاث، بتلقائية مصرية عفوية، طفلا صربيا، فحال دونه والضياع أو الخطف، ظروف أقرب إلى المصادفة، لم يقصد، ولم يتمنظر، ولم يدّع، ولم ينتظر مكافأة، كان طفلا خواجه مثل كل الأطفال، هذا ما سوف يحكيه محمود لجلال فى الزيارة الثانية بعد إلحاح، الطفل عمره ثلاث سنوات، كان الطفل يبكى بحرقة ويقول كلاما بالخواجاتى، ولم يخطر على بال محمود أصلا ــ أن يعرف هويته، صربيا كان أم مسلما أم كرواتيا، الطفل طفل، والخواجة خواجة، والمسلمون هناك كلهم خواجات، نفس العيون الزرق ونفس الشعر الأصفر، ونفس الطفولة الباكية المتلفتة الباحثة عن أهلها أو من يقوم مقامهم، فقام مقامهم، لا تحتاج هذه المسائل إلى اتفاقية دولية للتبنى المؤقت للأطفال، وهى لا

تشترط السؤال عن انتماء الطفل ولا عن هوية أو دين من يستغيث فيغاث، يحكى محمود الحكاية دون زهو خاص، كيف أنه دهش لدهشة أهل الطفل من الصربيين لما اهتدوا إليهم من خلال حل رموز كتابة على "تعليقة" فى سلسلة حول عنق الطفل، لم يصدقا، كانا والدين: "خواجة وخواجاية" مثل أى "خواجة وخواجاية"، قالا كلاما كثيرا لم يفهمه محمود، وأخذا عنوانه، وسجلا أشياء يبدو أنها كانت عرفانا أو ندما أو اعتذارا عما تعمله الفئة التى ينتمون إليها، هذا ما أبلغه محمود لجلال فيما بعد دون تفاصيل، كان بوده لو أنه وصف له شعوره وهو ينام والطفل فى حضنه يبتسم ثم يقهقه وهو نائم، لا بد أنه كان يحلم، الابتسام لغة، والأحلام كذلك، لغة عالمية لا تحتاج إلى ترجمة، حصل محمود على تقدير لم يقصد إليه أصلا، وسُجل الحادث فى ملفه، وقيد اسمه فى سجل شرف ما بالأمم المتحدة، وقد يكونون قد أرسلوا إلى رئاسته فى مصر خطاب شكر أو إشادة، هذا ما استنتجه حين قالوا له إن ما فعله فى البوسنة، مما شرف مصر، قد يكون هو شفيعه أن تقبل استقالته، ليتفرغ.

ــ تتفرغ لـــــ "ماذا" يا محمود؟ .

ــ لهذا يا جلال، ستة أفدنة من أجود أراضى جــرزة، صحيح هى بور الآن، لكنها أرض الوادى، ومعاش ومكافأة، ودخل متواضع من نصيب فى صيدلية، ماذا يلزمنى غير ذلك؟ أريد أن أبتعد عن القاهرة، وعن الكذب، وعن الكفر وعن سرطان اللهاث نحو ما لا ندرى.

ــ أنت لستَ مزارعا أصلا يا محمود، والفلاحون صعب، فكــرِّ كثيرا قبل أن تستقيل.

ــ لقد فكرت ما فيه الكفاية، إما أن أستقيل، وإما أن أعود إلى البوسنة، حتى بشكل غير رسمى.

ــ تعود إلى أين؟ وهل البوسنة خالية من الكذب، ومن الكفر، ومن العفن، ومن اللزوجة، خصوصا بعد الاتفاقات "النصف كم" التى تــمَــتَّ مؤخرا، والمعونات المشروطة سرا أو جهرا.

ــ لا أعرف، أنا فاهم تماما أن خبرتى هناك كانت لها ظروف خاصة، أنا أعرف أنهم أول ما يستقرون، ويتمرغون فى نقود المعونات، ويقبلون شروط الإعمار الظاهرة والخفية، سوف ينسون دروس الحرب على الجانبين، وسوف ينسون سلوبودان، وينسوننى، أعنى ينسون علاقتى بسلوبودان.

ـــــ يا خبر أسود، علاقتك بمن؟

ــ بسلوبودان، هذا هو اسم الطفل الصربى، صديقى الذى حكيت لك عنه.

ــ اسمه سلوبودان ميلوسوفتش؟ .

ــ ميلوسوفتش مــَنْ يا جلال؟ سلوبودان يعنى سلوبودان، هو اسم مثل محمد أو أحمد أو فرج، ألا يوجد سلوبودان إلا وهو ميلوسوفتش.

ــ آه صحيح، كم قاتلا وقوادا ونصابا عندنا اسمهم محمد.

-2-

على الرغم من أن محمود هو شقيق ثريا، وأن ثريا كانت زوجة جلال، إلا أن جلالا لم يعرف محمودا من قبل هكذا، حتى المرات القليلة التى جاء يزور أخته فيها كان جلال يتجنبه؛ ربما لأنه ضابط، جلال لم يحب الضباط أبدا، بل إنه يخاف من كل من هو ضابط، أو كالضابط، مرور، مباحث، جوازات، إمام وخطيب، أى ضابط، حين انفض الزواج (ربما قبل أن يبدأ) نسى أن لثريا أخا ضابطا، وحين عادت تذكــِّره بأخيها كان ذلك بمناسبة تواصل حديثهما الذى لم ينقطع أبدا عن مراجعة الإنكار واحتمالات العودة إلى أصل الأصول.

ــ عودة إلى أين يا ثريا؟ إلى من؟ نحن لا نعرف كيف نعود لبعضنا، وأنت تتكلمين عن العودة إليه، ألن تعقلى أبدا؟ وأين تركناه حتى نعود إليه؟

ــ مازلتَ كما أنت ياجلال، عنيد حتى الغباء.

ــ أنت تضحكين على نفسك يا ثريا. أنا أتكلم جدّا، أريد أن أعرف محمودا لأعرفك أكثر، وربما

الابتسام لغة، والأحلام كذلك، لغة عالمية لا تحتاج إلى ترجمة،

أعرفه أعمق، أنا لم أقابله أبدا بصفته ضابطا، أنا أخاف الضباط كما تعلمين.

ــ اطمئن، يبدو ان الله سيتوب عليه؟.

ــ.. هل سيفصلونه بالسلامة لحسن السير والسلوك؟

ــ هو الذى طلب ذلك، ألم أقل لك؟ هل نسيت؟ هو يقول إن رغبته تلك لها علاقة وثيقة بالموضوع ذاته.

ــ أى موضوع؟

ــ موضوع ربنا، وأمريكا.

ــ وإيش أدخل أمريكا فى ربنا؟

ــ لا يا شيخ ! تستعبط؟! محمود أيضا على يقين من أن أمريكا ضد ربنا.

ــ.. كنا نصر على أن روسيا وأخواتها هم الذين كانوا ضد ربنا.

– يبدو أنهم كلهم ضد ربنا؟

ــ ونحن؟ .

ــ إيش عرفنى.

رتبت ثريا بعد ذلك هذا اللقاء الذى اختار له أخوها أن يكون فى "الموقع"، كأنه معركة حربية، أو على الأقل لقاء تدريب على الذخيرة الحية.

كم قاتلا وقواداً ونصابا عندنا اسمهم محمد.

قال له محمود بعد أن رحب به بطيبة لا تتناسب مع موقف جلال غير المعلن.

ــ إذن فالموضوع يهمك.

اعتدل جلال على المصطبة المتهدمة تحت العريشة التى كانا يجلسان عليها معا خارج الدار المتواضعة التى يعدها محمود لهجرته. رد جلال:

ــ لولا أنه يهمنى ما حضرت إليك هنا بالذات.

ــ إياك أن تكون على وشك عمل موضوع للنشر فى الصحافة، لقد أخبرتــنى ثريا أنك تفكر أنت أيضا فى ترك الصحافة.

ــ يعنى.

ــ يعنى ماذا؟ لماذا؟

ــ يبدو أن الصحافة هى التى تركتنى، أصبح ما أكتبه لا يصلح لها، وما تنشره الصحافة لا يصلح لى.

ــ إن ما تنشره الصحافة لا يصلح لأحد على كل حال، ولكنى قرأت لك مؤخرا شيئا فى الأهرام، على ما أظن، عن التعليم أو عن المدارس أو عن اللا مدارس، لا أذكر، كان كلاما صعبا لكنه رن فى داخلي؛ ربما لأنه يتعلق باستقالتى المأمولة.

ــ هل قرأت المقال حقا؟

ــ– نعم، ماذا يدهشك فى هذا؟

ــ تصور أن أحدا لم يكلمنى عنه إلا صاحب معرض سيارات تعرفتُ عليه مؤخرا، كان آخر من أظن أنه يمكن أن يقرأه أو يعلق عليه، ذهبت إليه وأنا متصور أننى سأقابل أحد الأثرياء الجدد، وهو يضع كرشه أمامه، وسلسلة ذهبية تتدلى حوله، وإذا به شئ آخر، شخص آخر فعلا.

ــ شخص آخر، لمجرد أنه قرأ مقالك؟

حكى جلال لمحمود عن سبب مقابلة أمين، وعن مشروعه وهو يزمع أن يترك الصحافة، وعن

تصوره عن دور اللغة فى تشكيل الأطفال، ومصر، و... والدنيا.

ــ يا خبر، كنت أتصور أننى وحدى الـــ... الـــ...

ــ المجنون؟

ــ هكذا يقول لى كل من أعرف حين أعرض عليهم مشاريع الاستقالة والزراعة.

راح كل منهما يحكى للآخر حتى نسيا سبب المقابلة إن كان لها سبب، تأكد محمود أنه لم يعرف جلالا أبدا قبل ذلك،، كذلك جلال راح يكتشف محمودا من جديد.

ــ لم تكن هكذا عندما تزوجت أختى. أنا لا أدعى معرفتى بك بما يكفى، لكن هذا ما،... لست أدرى ما...، ماذا.....، لم تكن هكذا على أية حال.

ــ أختك تقول عكس ذلك، وتؤكد أننى لم أتغير أبدا.

ــ ربما..، هى تعرفك أكثر منى.

ــ وأنت أيضا لم تكن "هكذا" عندما خطبت أختك.

ــ لا أذكر أنك خطبت أختى. أنتما تزوجتما. "هكذا" فقط.

صمت جلال فجأة، كذلك محمود، ويبدو أن أمرا واحدا كان يشغلهما كل بمنطقه الخاص، بدا أن الكلام يباعد بينهما.

يبدو أن الصحافة هى التى تركتنى، أصبح ما أكتبه لا يصلح لها، وما تنشره الصحافة لا يصلح لى.

ومع ذلك عاد محمود يسأل:

ــ لا تصعِّب على الأمور، ما مشروعك بالضبط؟

ــ مشروعى متواضعٌ.. وعمليّ، يعتمد على ترتيب مخ صغار التلاميذ من خلال تصحيح اللغة، إننا بدون تنقيـــة اللغة والتصالح مع جذورها منذ الصِّغر، لا أمل فى الكبار،الأمل فى الأطفال، مستقبل البشرية.

ــ يا صلاة النبى! ما هذا الكلام الذى تقوله؟ تريد أن تصبح "مدرس لغات خصوصى" بدرجة نبى.

ــ إن ما جعلك يا محمود تضع ذيلك فى أسنانك وتأتى إلى هنا يجعلنى أتصور أنك أدرى بطبيعة ما أنوى أن أفعله.

ــ فى عز الحرب والإبادة والاغتصاب، ووسط اللهجات والأصوات المحيطة بنا هناك،فى البوسنه، تصورت أنه لا يوجد حل إلا أن نبدأ من جديد.

ــ نبدأ ماذا؟

ــ نبدأ أى شئ، وكل شئ، حتى لو كان مثل الذى تريد أن تفعله يا جلال بمشروعك الخائب هذا، وربما مثل ما أورِّط نفسى فيه هنا، يبدوأنه وباء جديد، ادعاء النبوة دون إعلان.

ــ ربما!!.

مرة أخرى صمت كل من محمود وجلال وكأنهما اتفقا على ذلك، كاد جلال يلمح، أو يتصور ــ أن عينا محمود اغرورقتا، ففرك عينيه هو، وأحس ــ أو تصور ــ أن يديه ابتلتا من أثر مسح عينيه، أزاح وجهه بعيدا وراح ينظر فيما حوله من معالم بدائية، لا يوجد فى هذه الأرض ما يشير إلى أى احتمال معيشة أسرة، متوسطة، محترمة، العريشة التى يجلسون تحتها تكاد تنهار، والمصاطب متآكلة، لكن النخل عريق، نخلات متفرقة لكنها تبدو عملاقة، غير غابة النخيل فى "أبو النمرس"، وغير جذوع النخيل الخاوية فى وادى فيران.

ــ وهل تنوى الانتقال بأسرتك يا محمود إلى هنا إذا قبلوا استقالتك؟

ــ طبعا،....، يا ليت!.

ــ طبعا شئ، ويا ليت شئ آخر.

ــ أنا مرتــبــك يا جلال، بصراحة لابد من حل.

ــ "ما لا نعرف" هو الحل.

لم يضحك أى منهما.

-3-

أثناء حديثهما عن كيف سيدبر محمود نفقات معيشته حكى محمود لجلال كيف أن صديقا أو "معرفة" لوالده عبد السلام المشد، باع لوالده نصيبا فى صيدلية، الثلث تقريبا، وذلك حين اضطر هذا الصديق أن يدبر مصاريف هجرة أولاده إلى كندا، وأن والده كتب هذا النصيب باسمه دون ثريا التى لم تتكلم فى حقها أبدا، لم يتوقف جلال وتذكر أن ثريا لم تعد زوجته. مضى محمود يوضح كيف أنه لم يتصور يوما أن هذا النصيب سوف يكون أحد مصادر رزقه التى تؤمنه وهو يغامر ليستقيل، وحين تطرق الحديث عن موقع الصيدلية، وأنها فى "أبو النمرس"، قفزت إلى جلال ذكريات يوم عيد ميلاده، أو مولده، فاقترح أن يكون لقاؤهما التالى أمام تلك الصيدلية ثم ينطلقا إلى حيث يتفقان بعيدا عن القاهرة وعن جرزه أيضا، كأنها أرض محايدة. أو لعل جلالا أراد أن يتأكد أن ما يقوله محمود ليس خيالا يطمئن به نفسه، أو لعله حنّ لانطباعات الطريق فى ذلك اليوم الطويل الخاص، الأمورعائمة وغامضة، وكل منهما يتهم الآخر (ظاهرا وباطنا) بالشطح، وكل منهما يأتنس بشطح الآخر فى ذات الوقت، ثم يتظاهر بأنه يحاول أن يعيد صاحبه إلى موقعه، وكأنه ينبه نفسه إلى موقعه هو بتحديد موقع أقدام الآخرعلى أرض الواقع.

تقع صيدلية "المحبة" قريبة من محطة الميكروباص أمام السور الشائه الذى بناه بنـــّاء يكره نفسه، تنفيذا لتعليمات رئيس مجلس مدينة يكره الناس، أثناء مرور الميكروباص الذى أقله إلى هنا، أطل جلال من النافذة فى محاولة أن يلمح عبد المعطى أو وردة أو بنتها، هو يريد أن يتزود من أى منهم بشئ يعينه على هذا اللقاء، لكنه لم يلمح أحدا منهم. وصل إلى الصيدلية قبل الموعد بأكثر من نصف ساعة، الصيدلية مفتوحة نصف فتحة، "الصبى الرجل" يكنس أمامها بكسل لا يتفق مع نسائم الصباح المنعشة التى لم تتراجع أمام القبح الفج.

دخل جلال إلى الصيدلية ولم يجد أحدا، فأخذ يتلفت حوله ليتأكد من أن الأرفف مليئة بما تمتلئ به، نظر إلى الطاولة ذات السطح الزجاجى والحوامل واقفة على بعض أطرافها، وفيها كل ما ليست له علاقة بالطب والدواء: أمواس حلاقة، مناديل ورقية، روائح عطرية، لم يعد هناك فرق بين صيدلية وسوبر ماركت، ومحطة بنزين، كله على كله، اطمأن إلى أن نصيب محمود فى هذه الصيدلية -إن صح كلامه- يمكن أن يكفيه هو وأولاده حين تنهار أحلامه فى مشاريع جِرْزَة الوهمية، ما له هو؟ ما رآه فى فدادين محمود الستة لا يبشر بخير، صحيح أن معاش أى ضابط صغير أكبر من مرتب مدير عام، لكن الأسعار تقفز كل يوم، والأولاد يكبرون – فجأة تذكــّر جلال ثريا وتساءل: هل تعرف شيئا عن نصيبها؟ وهل هناك نصيب أصلا؟ ثم ذكر نفسه بخجل شديد، ورفض كذلك، أنها لم تعد زوجته- ثم إن ثريا لم تكلمه أبدا فى شأن هذه الصيدلية. هو ماله؟ عجيبة،!!! منذ متى تشغله هذه المسائل!!.

خرجت الموظفة، أو الدكتورة أوالمديرة، لا يدرى، من وراء باب داخلى صغير. سمراء، نصف جميلة (وليست نصف قبيحة)، يرتسم على وجهها مشروع ابتسامة جاهزة للتشكل حسب تعبير وجه الزبون، وربما نوع ثقافته، أو برج مولده، أو موطنه الأصلى، حياها فى تردد ولم يسأل عن محمود عبد السلام المشد، لا يبدو أن هناك أية علاقة بين هذه السيدة وبين نصيب محمود المزعوم فى هذه الصيدلية، طلب شريط ريفو، فأحضرته بابتسامة تتناسب مع تفاهة الطلب، شكرها، ودفع، وخرج.

كان "الصبى الرجل" قد أنهى مهمته خارج الصيدلية. نظر جلال فى الساعة فوجدها التاسعة

مشروعى متواضعٌ.. وعملىّ، يعتمد على ترتيب مع صغار التلاميذ من خلال تصحيح اللغة، إننا بدون تنقيــة اللغة والتصالح مع جذورها منذ الصِّغر، لا أمل فى الكبار،الأمل فى الأطفال، مستقبل البشرية.

وعشرين دقيقة، الميعاد الساعة التاسعة، ما الحكاية؟ نظر إليه الصبى الرجل، خيل إليه أن السيدة الدكتورة فى الداخل تتابع خطواته على الرغم من أنه بعيد عن مجال بصرها، يبدو أنها تشك أنه من مباحث التموين، أو ربما من رجال الضرائب أو مفتشى مكتب العمل. عندها حق، ما الذى جاء به فى هذه الساعة المبكرة ليطلب شريط ريفو؟ اتجه فى الاتجاه المؤدى إلى شبرامنت خوفا من أنه لو اتجه الناحية الأخرى فقد تجرجره قدماه إلى المزلقان حيث وردة وعبد المعطى.

التفت يسارا فجأة نحو مشهد قفز مقتحما وعيه: طفل حول العاشرة، رث الثياب، يضع ذيله فى أسنانه ويجرى بأقصى سرعة، ثم رجل حول الأربعين يلاحقه مع الاحتفاظ بالمسافة، ربما قصدا، حتى لا يلحق به ــ يعبر الطفل الكوبرى الصغير المتهدم جانبه، والرجل يصيح به ويلعنه – يبدو أنه أبوه.

ــ والله لأوريك يا ابن الكلب.

سمع صوت موتور"الموتوسيكل" الحكومى وهو يتصاعد، يمتطيه أمين شرطة متحفز مستعد (لشئ ما)، وهو يتجه نحو الرجل وابنه (ربما هو ابنه فعلا) وكأنه يتابعهما، خيل إليه أن صوت الأمين جاءه وسط ضجيج مركبته يهدد أحدهم:

ــ عندك يا بن الشــر....، لم يسمع جلال بقية الكلمة، لكن الموتوسيكل تجاوز كلا من الاب وابنه بسرعة فائقة:

"مــن يــورى مــن: ماذا؟".

لماذا تأخر محمود؟ ولماذا يأتى أصلا؟ ولماذا هذا الميعاد هنا هذا الصباح؟ هل كان جلال ينوى أن يحاول أن يثنيه عن الاستقالة؟ بأية صفة؟ زوج أخته؟ هو عمره ما كانت له زوجة حتى يكون لها أخ يشعر إزاءه بهذه المسئولية، مسؤول بصفة ماذا؟ هو يقاربه فى العمر، ثم إن أخت محمود هذه لم تعد زوجته، أصبحت أقرب من الزوجة وأبعد من الحبيبة، ثم إنه أصبح يشك فى كل ما هو زواج، يبدو أنها إشاعة لا أكثر، هل فاتيما زوجة أمين؟ منال أنصحهن، ترافق من تشاء اتقاء للزواج، فلا هى ترافق ولا هى تتزوج، ولا هو يكف عن حبها، ولا هى تكف. كل البيوت فى هذه المدينة داخلها زوجات وأزواج يعيشون فى التبات والنبات وينجبون صبيانا وبنات، السبعينيون أيضا يتزوجون ويتطلقون، حين خُــيــِّروا بين الحرية والقهر اختاروا الحرية، ثم انتهى الأمر إلى أنهم استعملوها – الحرية– ليقهروا أنفسهم بمعرفتهم، وجدوا أنفسهم – بكامل اختيارهم– فى سجن القهر الدكر، فهل من مدَّكِــر؟ من أين تأتيه هذه الآيات دون استدعاء؟ كان عمه سليمان يقرأ القرآن يوميا بصوت جميل فى هدوء رائق، كان لا يكثر، وكانت أمه يشرق وجهها دون أن تفهم حرفا، ويبدو أنه قد وصلته هذه الاستشهادات القرآنية التى ترد إليه هكذا من ذاكرة كانت تلتقط ما تريد من وراء ظهره، يبدو أن أعمق ما تعلمه كان من عمه سليمان، فى سنواته الأولى جدا، حين كان يحتويه فى عباءته وهو يقرأ القرآن.

نظر فى الساعة فوجدها تقترب من العاشرة، ليس ممكنا هذا، لابد أن يخرج من المشوار بشئ ما، عاد إلى الصيدلية، تردد قبل أن يدخل ثانية، عرف أن الدكتورة سوف تشك فيه هذه المرة أضعافا مضاعفة، ولكنه لم يملك لرغبته دفعا، ثم من أدراه؟ ألا يجوز أن يكون محمود قد حضر أثناء تمشيته على شاطئ الترعة، همهم بصوت خافت:

ــ ألم يحضر محمود عبد السلام؟ ألم يسأل عنى؟

فوجئت السيدة (ربما الآنسة) الدكتورة (فى الأغلب) بسؤاله هذا الذى قفز منه بصوت مرتفع. التفتت إليه حتى واجهته وقد أخذت حذرها الناحية الأخرى.

ــ خيرا، ماذا تقول يا سيدى، هل تخاطبنى؟ هل نسيت شيئا حضرتك؟

ــ لا.. أبدا، أردت فقط أن أسأل عن صديق كان مواعدنى على اللقاء هنا.

ــ صديق؟ هنا؟ بصفة ماذا ولا مؤاخذة؟

ـــ آسف، لا بد أن أكون أكثر وضوحا، المسألة أن لى صديقا زعم أنه يملك نصيبا ما فى هذه الصيدلية، وهو على وشك عمل مشروع ما، فتواعدنا على اللقاء هنا، مجرد مكان يمكن التعرف عليه.

ـــ سيدى، يبدو أنك رجل طيب، إياك أن تكون قد وقعت فى يد محتال يريد أن يبيع لك الترام!!.

ـــ ترام ماذا، إنه قريبى، أعنى كان قريبى، وأنا مشغول عليه.

ـــ كان قريبك !! وهل للقرابة عمر افتراضى؟ ثم إنى لا أريد أن أتدخل فى شئونك الخاصة، وليس عندى مانع أن أخبرك ما أعرف، أنا أشم رائحة خدعة، بل اسمح لى، أنا أشعر أن فى الجو جريمة نصب، احتمال يعنى.

ـــ لا..لا.. لا.. أبدا.

ـــ هل أنت متأكد أنه قال لك إن هذه الصيدلية، صيدلية المَحبة، له فيها نصيب.

ـــ طبعا، وهو الذى أعطانى العنوان.

– يا سيدى هذه صيدلية خالى مائة فى المائة.

توقف وتردد وتراجع وقرر أن يغيــّر الموضوع حرجا أوهربا أو بدون سبب، وطلب باستيلية لاحتقان الزور فأعطته إياها وهى مازالت ترفع حاجبيها محذرة، بدأ العرق يتسحب إلى مسام جلده دون أن يظهر، ما هذه الورطة التى أوقعه فيها محمود هذا الصباح دون أن يحضر؟ ماله هو واستقالته؟ يريد أن يطمئن عليه؟ هل هذا كلام؟ مــن الأولى بالاطمئنان على الآخر؟ إن حالته ألعن من حالة محمود ألف مرة، لا يستبعد فعلا أن يكون قد تقمصه لدرجة أنه يريد أن يرى مخاطر مشروعه هو، مشروع الدروس الخصوصية، من خلال التيقن من شطح المشروع الآخر، مشروع الهرب إلى جــرزة، وما دخل هذه الدكتورة التى راحت تفهــِّمُه بوضوح وتكرار كيف أن الصيدلية ملك خالص لخالها، وتحذره من احتمال تعرضه لعملية نصب كبيرة؟ لم يساوره الشك فى كلام محمود، ومع ذلك سأل وهو يغادر:

– إذن فهذه الصيدلية هى ملك خالك وحده؟

ـــ مائة فى المائة.

ـــ دون شريك؟

– هذا ما أعرفه تماما.

تطوعت الدكتورة، ربما من باب الشفقة، فشرحت له – بإيجاز – كيف أن خالها لم يقرر الهجرة إلى أولاده بعد، وهو لا ينوى بيع الصيدلية، وأن عليه، على جلال، أن يحذر حيث أن خالها مسافر مؤقتا ليرى أولاده فى كندا، وهو على وشك الرجوع، نصحته إذا كانت المسألة تتعلق باحتمال النصب والاحتيال، أن يتصل بمحامى خالها الأستاذ شريف قلتة بشبرا، فهو أدرى بهذه المواضيع حتى من خالها.

تمتم دون اهتمام:

–... ربنا يستر.

شكرها، واعتذر، وشكرها واعتذر، لكنها أصرت أن تقدم له بطاقة باسم الصيدلية والمدير "الدكتورة : مادلين رياض"، ثم بطاقة أخرى عليها اسم وعنوان محامى خالها، ثم كتبت عليها عنوان خالها أيضا، وضع البطاقتين فى جيبه دون أن ينظر فى أى منها، وانصرف مندفعا إلى خارج الصيدلية.

تلفت يمينا ويسارا، نظر فى ساعته، بدا أن الشارع قد امتلأ حركة ودخانا وصياحا وقطرانا، ثم أضيفت إليه جرعات جسيمة من قذارة غير متميزة، الناس – أيضا– غير متميزين، تماوجت حركة متداخلة من الحمير والبغال والخيول والعربات الكارو، والسيارات النصف نقل، والميكروباص،

وبعض الملاكى العابرة بسرعة دون اعتبار للمارة. لم يظهر أى أثر لمحمود عبد السلام.

راح جلال يفكر أن يعوض المقلب الذى أخذه هذا الصباح بأن يمر على أصدقاء المزلقان، ولابد أنه سيجد أحدهم، عبدالمعطى، أو وردة، أو حتى بنتها – كان يأمل أن يخففوا عنه بعض ما هو فيه من إحباط وحيرة، يريد أن يراهم، لكنه يخشى أن يسأله عبد المعطى عن مسألة النقل، كما يخشى أن تكتشف وردة، بحدسها المخترق، إحباطه، وحيرته، وخيبته البليغة.

الأفضل أن يختبئ من الجميع.

أخذ يتذكر هل ذكر له محمود عبد السلام اسم معرفة والده الذى باع له ثلث الصيدلية أم لا، ماذا يفيد الاسم، هل ستفرق؟ هل هناك سر غامض يربط بين هؤلاء الناس بخيوط خفية، حاول أن يتذكر أكثر فخيل إليه أن اسمه غالى، هل ذكره محمود، أو لعل الدكتورة مادلين هى التى ذكرته، أو لعلها كانت تقول خالى، وهو سمعها غالى..، إذن ماذا؟ لا شئ.

التقط صوت مناد ينادى:

ــ واحد جيزة، واحد، واحد ميدان الجيزة، فاضل واحد.

طلع إلى الميكروباص مطمئنا أنه سوف يقوم فى التو، وجده خاليا تماما، قرأ المنادى أفكاره، فطمأنه، أنه سيمتلئ حالا، وعزم عليه ــ أمريكانى – بواحد شاى.

وجد نفسه مرتاحا لعدم حضور محمود عبد السلام من أصله.

لم يكن عنده جديد يقوله له، وإن كان عنده، فليقله لنفسه.

ويعقل.

أو يتلهى على عينه..

إرتباط كامل النص:
www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD290718.pdf

*** *** ***

شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقيا بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي
http://www.arabpsynet.com/

المتجر الالكتروني
http://www.arabpsyfound.com

شـــعـــن: انجـازات اربعـــة عشـــرة عاماً مــن الكــدح "

(التأسيس العام 2000 الاطلاق على الويب العام 2003)

الكتــــــاب السنـــــوي الخامـــــس

تحميل الكتاب

– التحميل من موقع " شبكة العلوم النفسية العربية"
http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf

اشتراكـــــات الدعـــــم في اصدارات الشبكة
http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_category=36&controller=category&id_lang=3

خدمات الاعلان بالمتجر الالكتروني
http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_category=39&controller=category&id_lang=3